

اللغة ورهانات الكتابة في الرواية

دراسة نظرية

أ. شاوي فتيحة

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفن

جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

لفن الكتابة تقنيات مميزة وجب توفرها في النص حتى يجمع من خلاله أكبر قدر من القراء بين مؤيد ومعارض، ولغة الكتابة تعبر عن جوهر الإنسان وابداعاته بطرق تختلف من فرد لآخر، فمنه من يصور ما يراه جمالا أو العكس، ومنه من يبرهن على قضية تدافع عن الحق، ومنه ما يجول بالخيال حتى يؤسس لوحة تصويرية خارجة عن منطق الواقع رغم أنها جامدة، فالإبداع الخالد ما كان بالقلم؛ لأنه راسخ بالفكر الإنساني وإلا كيف تواترت الحكم وانتقلت من دائرة لأخرى، ومن نسق ثقافي لآخر لتكون في أعلى مكانة من الإبداع مما قدم الفكر الإنساني.

وللقلم كلام آخر في عرض الإبداع، ليصل لعمق الذات تعبيرا متجليا في قصة، شعر، مقال رواية هذه الأخيرة التي ستكون محور الدراسة، والتي استطاعت أن تؤسس لنقد قائم بذاته، حيث أسالت أقلام العديد من النقاد والدارسين عبر مراحل تشكلها كجنس أدبي قائم بذاته،

كما أنها كانت فكرة هدف لكاتب قدم من خلالها موضوعا حرك مخياله وقلمه بفعل واقع عاشه أو فلسفة إيديولوجية ليبرزها نقدا أو عرضا .

تسير اللغة وفق مسار الإنسان التاريخي، الذي عبر بالفاظها عن الشعور وعن الغيبات والأساطير، وعن الفن والأدب والعلم، ومن هذه المفاهيم قننت اللغة، فظهرت اللهجات فالعاميات، فالفصحى، فاللغة الأم، واللغة تولد مع الفرد وتموت بموته، وذلك رغم أنها كانت قبله وستبقى بعده، حتى وإن اختلفت من فرد لآخر، ومن أمة لأخرى، فهي لصيقة بالذات الإنسانية، وهنا تتجلى قداسة اللغة، كما أن الكتب السماوية جعلها نزلت، وكتبت وقرأت لغة لا غيرها، فلا علم بدون لغة، ولا فكر دونها، فكل ما وصلت إليه البشرية من رقي، إنما كان لغة، فهي خالدة بوجود الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فدور اللغة يفوق حدود المعقول، ولهذا اعتنت جل الدراسات بها وخلدتها تسجيلا وكتابة، وإلا كيف وصلتنا العلوم والآداب الضاربة في القدم .

عرف علماء النفس اللغة بأنها: «إشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور أي عن حالات الإنسان الفكرية والعاطفية، والإرادية، وأنها وسيلة يمكن بواسطتها تحليل أي صورة أو فكرة...، وذلك بتأليف كلمات ووضعها في ترتيب خاص، وهذا التعريف

يتضمن وظيفة اللغة إجمالاً⁽⁴¹⁾. وعرفها العلامة ابن خلدون «بوضوح وبساطة، حيث قال: «اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسان، فلا بد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم»⁽⁴²⁾، ولدى الغرب اللغة عرفت على أنها: «مجموع المفردات ومعرفة دلالاتها»⁽⁴³⁾ ويرى دوسويسر: «أن اللغة في جوهرها نظام من الرموز الصوتية أو مجموعة من الصور اللفظية تحتزن في أذهان أفراد الجماعة اللغوية، وتستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع معين، ويتلقاها الفرد عن الجماعة التي يعيش معها عن طريق السماع»⁽⁴⁴⁾ ومهما تعددت مفاهيم اللغة وتعريفاتها تبقى دائماً محور الفعل الإنساني بوصفها أهم خاصية متعلقة به.

فعن طريق اللغة تباينت الأفكار والإبداعات الكتابية كونها تعكس عالماً من الدلالات، أكثر عمقا وحجماً من ألفاظها وحولتها تتصاعد أكثر وفق الأنساق الكلامية المختلفة في إطار الفني الواحد. يقول «باختين»: «مهما تعددت ميادين النشاط الإنساني،

(41) - نايف المعروف، خصائص العربية و طرائق تدريسها، دار

النفايس، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص: 15.

(42) - عيد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدت، ج1، ص: 546.

(43) - حاتم صالح الضامي: علم اللغة، بيت الحكمة، جامعة بغداد، مطبعة مطابع التعليم العالي

بالموصل، سنة 1989، ص: 31

(44) - حاتم صالح الضامي: علم اللغة، ص: 32.

فإنها تتعلق دائما باستخدام اللغة»⁽⁴⁵⁾، وكل عمل في كتابي ينسب لهذا الإطار، والرواية موضوع هذا البحث ومحور دراسته تغدو كذلك من أهم النشاطات الفكرية التي لاقت رواجاً كبيراً في الوسط الفكري الإبداعي الأدبي وغيره، وهي عند «عبد الملك مرتاض» فعل أو عمل سردي مطول نسبياً، معقد التركيب والبناء والقائم على تقنيات كتابية معروفة، من أقواله في تعريفها أنها: «نقل الروائي لحديث محكي، تحت شكل أدبي يرتدي أردية لغوية تنهض على جملة من الأشكال والأصول، كاللغة والشخصيات، والزمان، والمكان والحدث، يربط بينها طائفة من التقنيات، كالسرد و الوصف، والحبكة، والصراع وهي سيرة تشبه التركيب بالقياس إلى المصور السينمائي، بحيث تظهر هذه الشخصيات من أجل أن تتصارع طورا، وتتحاب طورا آخر ليتهاي بها النص إلى نهاية مرسومة بدقة متناهية، وعناية شديدة»⁽⁴⁶⁾ وبهذا فقد لخص «مرتاض» الرواية في حدث ضمن زمان ومكان تتصارع وفقه شخصيات مختارة من الكاتب بلغة مختارة بعناية منه كونها الوسيلة الأدق للوصول لهدف محدد .

الرواية لا تعاين التاريخ بوصفه تاريخاً بل بوصفه جزءاً سابق الحاضر، بل هو هذا الحاضر، وقد تكون ذكراً للماضي سبق أو قد

⁽⁴⁵⁾ - (Mikhail Bakhtine :Esthétique De La Création Verbale ,Ed Gallimard,Paris ,1979 ,p: 265 .

⁽⁴⁶⁾ - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2005، ص: 30.

تعتمد على قوانين اللغة، حيث تسير وفق نظامها و«التنوع اللغوي الصوتي والإيديولوجي القائم أصلا في الواقع يلج إلى الكون الدلالي للرواية عبر الحوارية التي تسمح للشخصيات بالإنعتاق من سلطة الكاتب اللغوية والفكرية، فتنتطق بكلامها وتبين رؤاها للعالم بكل حرية و استقلالية»⁽⁵⁰⁾، فاللغة الروائية تحدد البيئة التي يوظفها الكاتب، وتتمايز من منطقة لأخرى، وبالتالي تختلف في طريقة توظيفها بين شخصية وأخرى حسب ما يفرضه مسار الأحداث، وأهداف السرد فباللغة «تنطبق الشخصيات، وتتكشف الأحداث، وتتضح البيئة، ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة التي يعبر عنها الكاتب»⁽⁵¹⁾، والروائي تظهر من خلال لغته شخصيته المنفردة كمبدع، وهذا ما يصنع أسلوبه الخاص به في عرض الأفكار وطرح الموضوع .

إن تشكل البنى القولية داخل المتن الروائي تستدعي البساطة كون هذا الفن واسع المساحة تعبيراً، وأكثر قرباً للواقع وتجسيدا له في أغلب الإبداعات ماعدا الخيال العلمي البحث. واللغة في الأعمال الأدبية الفنية بصورة «ليست مجموعة من الألفاظ فقط؛ بل مجموعة من العلاقات المصاغة بألفاظ، فالمهم في العمل الأدبي ليس

(50) - سيدي محمد بن مالك: اللغة و رؤية العالم في الخطاب الروائي، مجلة الأثر، أشغال الملتقى

الوطني الأول حول اللسانيات و الرواية، يومي 22 و 23 فيفري 2012، ص: 27.

(51) - عبد الفتاح عثمان: بناء الرواية -دراسة في الرواية المصرية-، مكتبة الشباب

(المنيرة)، القاهرة، سنة 1982، ص: 199.

الألفاظ بذاتها، بل الروابط التي تقام بينها»⁽⁵²⁾، واللغة في العمل الروائي بحسب نظير «باختين» لها» ليست نسق ذات البنية الثابتة، وإنما اللغة-الملفوظ-الكلمة-الخطاب المحملة بالقصدية والسائرة من المطلقية إلى النسبية، والتي تتعد عن دلالة المعجم لتحضن معاني المتكلمين داخل الرواية»⁽⁵³⁾، إذ إن لغة الرواية ليست مجرد كلمات و ألفاظ.... وإنما مجمل الوسائل التقنية التي تجعل من «رواية ما رواية» وفقا للمصطلح النقدي المتعارف عليه المتعلق بالنوع الأدبي من شخصيات والمكان والزمان، وتأثيره على سير الأحداث وأسلوب التعبير (سرد، وصف، حوار) وجملة من المفردات التي تشكل وحدات لفظية لتجعل من اللغة نسيجاً متماسكاً يخضع لعنصر التمديد والتقلص فكرياً على حسب التلقي، ولكل نوع أدبي لغة مناسبة لتشكيل المعين. والرواية لكل عنصر مكون لها تقنياً دور «فتناول المقاطع السردية الأحداث وسريان الزمن، أما المقاطع الوصفية، فتتناول تمثيل الأشياء الساكنة»⁽⁵⁴⁾

فالرواية مزيج بين تقنيات لا بد توفرها في عملية الإنشاء الروائي كالسرد والوصف والحوار، وهذا المزيج يشكل لغة الرواية، والكاتب بهذا المزج الفني يحقق حرية لغته وحرية حركتها في النص

(52) - أحمد إبراهيم الهواري: نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، دار

المعارف، القاهرة، ط 1، سنة 1983، ص: 222.

(53) - باختين، ميخائيل: الخطاب الروائي، ص: 16.

(54) - سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة ط 1، سنة 1984، ص: 82.

وصولاً للغاية السردية المنشودة. وقد يكون الواقع هو أساس الاقتباس الفكري لرواية ما باختلاف طبقات المجتمع وجمع مختلف الصراعات والتجانسات التي يعيش فيها يقول «بلزك» في هذا الصدد: «الطبقات العليا تستخدم في كل البلدان رطانة براقية، إن غسلت بالرماد الأدبي أو الفلسفي، تعطي القليل جداً من الذهب في المصهر في كل فئات المجتمع»⁽⁵⁵⁾، وقد يغرف الروائي من الخيال ما يساعد على إخراج العمل الفني الروائي في نص متين يخدم بالدرجة الأولى الهدف منه، وبالتالي، فالروائي يسرد الخيال، وهذا الأخير يتجلى في الرواية عبر اللغة التي تبدو بحق وبتعبير «عبد الملك مرتاض»، «سيدة المكونات السردية»⁽⁵⁶⁾، كما أن اللغة مستويات تعبر عن مدى وعي الروائي بحقيقة اللغة كنظام قابل للتعدد والتنوع، واتساعه في فضاء النص الروائي بشكل خاص.

استنتاج :

لكل رواية قاموس لغوي منفرد عن الروايات الأخرى، ويتباين هذا اختلاف من ناحية الطرح السردية ومن ناحية البعد الإيديولوجي للرواية واختلافاتها نمطياً، كرواية السرد النفسي

(55) - فليب دوفور: فكر اللغة الروائي: تر: هدى مقنص، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص: 51.

(56) - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط 1، 1998، ص: 296.

ورواية الوعي ورواية الخيال العلمي ورواية الكلام الداخلي (المونولوج)، لأن كل واحدة تحدد فكرا معين وفقه تتحدد اللغة، إما بتمثيل لغوي مباشر باستعمال ضمير المتكلم سرديا -غالبا ما يمثل الراوي- أو بتوظيف ضمير الغائب وزمن الماضي. في هذه النقطة تشكل اللغة نسقا متكاملا يصعب فكه عن المتن السردي لأنها وسيط بين العالم التخيلي الذي تخلقه السرود وبين المتلقي حيث تجمع بين الكلام والإخبار والمحاكاة والتصوير التخطيطي والتعبير والتمثيل والتركيب والأسلوب.